Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١١، العدد ٤، شتاء ١٤٣٧ هـ
صفحة ٦١٥- ٦٣٣

الرومانسية وأشراطها في شعر الشريف الرضي

عباس عرب[١]*، أحمد خنيفي زاده[٢]

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة فردوسي، مشهد
٢. طالب دكتوره، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة فردوسي، مشهد

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/١٠/٢٨ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٦/٢/٢)

الملخّص

تناقشُ هذه المقالةُ شعر الشّريف الرضي من منطلق الأسس والأصول الرّومانسية في الشعر وإن كان الشّريف الرّضي قد عاش قبل ظهور المذهب الرّومانسي بقرونٍ لكن يبدو أنّ روحه الشّاعرة تغنّت ببعض ألحان الحبّ الرّومانسي، وهذا ما جعل الكثير من الشعراء الرومانسيين الأوائل يتأثّرون بشعره ويرونه مصدراً ملهماً من مصادر رومانسيتهم فظلّوا يعكسون أثره في جزءٍ غير قليلٍ من إنتاجهم الشعري. وهذا هو ما حثّنا على أن نتتبّعَ أثرَ الرّومانسية في شعره. وقد إعتمدت المقالةُ ذكرَ أشهرِ الاصول الرّومانسية الغربية وتطبيقها على نماذج من شعره. ينصبُّ تركيزُ هذه المقالة على العاطفة، والخيال الشعري، وقضية الوحدة العضوية والهجرة والإغتراب، واللجوء إلى الطّبيعة، والحبّ في شعر الشريف الرّضي. إنّ أهمية المقالة تنشأ عن ضرورة تقييم الشعر القديم تقييماً جديداً والمحاولة لكشف علاقة القديم بالجديد فكما قلنا أن بعضَ شعراء الرومانسية الأولى في الشعر العربي المعاصر تأثّروا بالشريف الرضي. وقد اعتمدنا منهج التحليل والتبيين وحاولنا أن نطبّقَ اصول المذهب الرومانسي على شعر الشريف الرضي ونوفّق بينهما.

الكلمات الرئيسة

الشريف الرضي، الرومانسية، الحجازيات، شعر الغزل، الحزن والاغتراب.

---

* الكاتب المسؤول
Email: darab110@gmail.com

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

تميز غزلُ الشّريف الرضي وخاصّةً حجازياتُهُ منذ القدم عند العرب بنظرتها المختلفة إلى الحبّ والحبيب فالشريف الرّضي لم يكن من الشعراء الذين تلذّهُم النظرةُ المادّية إلى الحبّ با حاول جاهداً أن يكون شعرُهُ قيماً روحية خالصة وعفيفة تجاه المحبوب. وهذا ما جعل بعضُ أبرز شعراء الرّومانسية الأولى العرب يستشفّون من شعره بعض أعذب النبرات الذّاتية والوجدانية كما نجدُ مثلاً عند الدّكتور إبراهيم ناجي الذي ظلّ يعكس أثر شعره في بعض قصائده.

ولكن هل يصحُّ أن نطلق على ما في شعر الشريف الرضي من السّمات الواجدانية الصافية والمؤثّرة عنوان الرومانسية رغم أنّ الرومانسية مذهبٌ أدبي حديث؟ والواقع أنّ الصلة ليست منقطعة دائماً في الأدب بين القديم والحديث. ولهذا يدّعي الكثيرُ من النقّاد المعاصرين المتخصّصين في الأدب العربي أن الشعر العربي القديم يمثّل في مختلف عصوره بعض خصائص المدارس الأدبية المعاصرة وخاصة المدرسة الرومانسية. من اكبر هولاء النقاد نستطيع ذكر المستشرق جب «Gibb» الذي يقول إنّ الصيغة الغالبة على الأدب العربي هي الرومانسيه حيث يقول: «إنّأدب العرب أدب رومانتيكي فهو في أغلب نماذجه يغلب عليه الخيال والتصوير» (ضيف، د.ت: ١٥).

إذاً المشكلة هي المصطلحات وإلّا فروح الأدب القديم قد لا تختلف في بعض الأحيان عن الأدب الحديث خاصّة في المدرسة الكلاسيكية والرومانسية قبل نشأة الشعر الحرّ وقصيدة النثر فإذا أطلقنا المصطلحات الحديثة على الظواهر الفنية القديمة فذلك من باب التطبيق وليس إدعاء وجود النزعة الحداثيوية بمصطلحاتها في الأدب القديم. يعترف بذلك شيخ الحداثيين العرب ويقول أنّ قراءة الشعر الفرنسي الحديث هي الّتي دلّته على حداثة الشعر العربي القديم عند شعراء كأبي نؤاس وأبي تمّام وأنّ دراسة النقد الأدبي الفرنسي الحديث هو الذي دلّه على حداثة النظرة النقدية عند نقّاد عرب كالجرجاني لكن دون أن تتشابه المصطلحات بالطّبع. كما حاول أدونيس أيضا في كتابه الثابت والمتحول يطبق بعض اصول المذاهب الرومانسي على شعر كثير عزّة (أدونيس، ٢٠٠٦: ٣٠١/١).

فموضوع المقالة إذاً يتمحور حول الشعر الشّريف الرضي ومدى انطباق المبادئ الرّومانسية عليه محاولةً إثبات بعض الخصائص الرّومانسيبّة لشعره بدرجاتٍ مختلفة من الإنطباق.. ونرى من الواجب علينا هنا ان نوضح عنوان المقالة فقد يكون غامضا او عجيبا بعض الشيء

www.SID.ir

Archive of SID

لوجود كلمة «أشراطها» فيه وهي بمعنى العلامات (الرازي، ٢٠٠١: مادة شرط). وقد أخذناها من القرآن الكريم حيث يتكلم عن القيامة وعلاماتها وقرب وقوعها ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا**﴾ (محمد/١٨).

هدف المقالة هو الكشف عن مدى انطباق الاصول الرمانسية على شعر الشريف الرضي الذي اتخد عددٌ غير قليل من شعراء الرومانسية شعره أسوة ونموذجا للإبداع الشعري المتألّق.

والفرضية التي تنطلقُ منها هذه المقاله يمكن أن يصاغَ بالصورة التالية وهو هل يمكن أن يعتر شعر الشريف الرضي مصدراً االرومانسية وهل تنطبقُ عليه الأصول الرومانسية؟

وأما بالنسبة لخلفية البحث فلم نرَ كتاباً أو مقالة تتكلّم عن الرّومانسية في الشعر الرّضي ويحاولُ تطبيق أصولها على شعره مطابقةً تامّة لكن أشارت الكثيرُ من الدراسات إلى تأثّر بعض أكبر شعراء الرّومانسية الأولى في الشعر العربي الحديث بشعر الشريف الرّضي وأعجابهم به دون محاولة التطبيق أو الكشف عن هذه التأثّرات فيما نالقشت بعضُ الدراسات عن الشّريف الرضي بعض الميزات او الجوانب الرّومانسية في شعره دون أن يجمعوا بينها للكشف عن مدى رومانسيته فقد تكلّم الدكتور زكي مبارك مثلاً في كتابه «عبقرية الشّريف الرّضي» عن بعض جوانب الحبّ الخالص كتجربة شعرية جديدة، وتكلّم عزيز السيد جاسم في كتابه «الإغتراب في شعر الشّريف الرّضي» عن الشعور بالغربة في شعره، والإغتراب كما نعلم من أهم خصائص الشعِر الرّومانسي. وناقش عبداللطيف عمران في كتابه«شعر الشّريف الرّضي ومنطلقاته الفكرية» بعض جوانب الخيال، والوحدة العضوية في شعره. والكتب والمقالات على ذلك كثيرة لا يمكنُ حصرَها وعدّها في هذا المقال.

التعريف بالشريف الرضي

هو أبوالحسن محمد بن الطّاهر أبي أحمد الحسين من كبار شعراء العرب في العصر العباسي يرجعُ نسبه إلى الإمام الصّادق عليه السلام (ضيف، ١٤٢٨: ٣٧١). وُلِدَ هذا الشّاعر عام ٣٥٩ق وصار هو وأخوه الشريف المرتضى الذي يكبرُهُ بأربع سنوات من أكبر علماء الشّيعة فقد كان لهما براعةٌ فائقة في الصّرف، والنحو، واللغة، والفقه، والتفسير، والتأريخ، والعقائد الإمامية والإسلامية ولهما تأليفات قيمة في هذه المجالات يمكن أن نشير إلى كتاب «تنزيه الأنبياء» للشريف المرتضى وكتاب «حقائق التأويل في متشابه التنزيل» للشريف الرضي في العلوم الإسلامية والقرآنية. كما اشتهر الشّريف الرضي بجمعه لخطب وكتب وحكم أمير

www.SID.ir

Archive of SID

المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في كتاب «نهج البلاغة» الذي يعدّ ذخراً أدبياً ومعرفياً إسلامياً.

كان والد الشّريف الرّضي يتمتّعُ بمكانةٍ رفيعةٍ لدى الخلفاء العباسيين في عهده وعند الولاة البويهيين فوُلّي مسؤليات عديدة كالقضاء وإمارة الحجّ. وقد أعتقل والده عام ٩٧٩ق وأقيل عن هذه المسؤليات وحُبِس بقلعة فارس وكان الشريف الرضي آنذاك صبياً فظلّ يتألّم لهذا الأمر حتّى اطلاق سراحه على يد البويهيين فظلّ الشاعرُ يمدحهم حتّى نال لديهم منزلة رفيعةً فوّلّي ما كان قد تولاّه أبوه من المسؤليات وهو حي.

وإذا أردنا أن نتكلّم عن أفضل ما أنتجه الشّريفُ الرّضي من الشعر فعلينا أن نذكر حجازياته وغزلياته الذي تمثّل طرازاً جديداً من النظر إلى الحُبّ بنزعة تشبه أحيانا النزعة الصوفية إذ يتفاني الشّاعرُ في حبيبه حبّاً عفيفاً فيلين أسلوبُهُ دون أن يبلغ الركاكةَ والضعف، ويتمتّعُ بالجزالة دون أن يفقد رقّته الغزلية ورنّة نغمات الحبّ الخالص للمحبوب.

الرومانسية

مدرسةٌ ظهرت في القرن الثامن عشر بإروبا ودعت إلى الاعتماد على النفس والوجدان في انشاء النصوص الادبية وكانت حصيلة طفرة في فكر البشر ومفاهيمه السياسية كالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ التي قوّضت النظام الملكي الاقطاعي وحملت مبادئ الحرية والديمقراطية (قصاب، ٢٠٠٧: ٣٧).

كانت الرّومانسيةُ محاولةً للإبتعاد عن النزعة التقليدية في الأدب الأرستقراطي والنزوع نحو الأدب الذاتي الذي يعبّرُ بصدق عن عواطف الشاعر أو الكاتب. فهي اقتران للعواطف والرقّة والخيال المبدع والبحث الدؤوب عن الحبّ الصادق، ومظاهر الجمال في العالم.

وللرومانسية أصول يمكنُ أن نذكر منها:

١. الاهتمام الرومانسية بالعاطفة والخيال واستبدال القلب بالعقل

٢. عرض مظاهر الشر او القبح والرذيلة إلى جانب الخير

٣. الاهتمام بالشعر الغنائي

٤. التعبير عن الذات بدل الاهداف الخلقية والاجتماعية والمناسبات

٥. الهجرة والاغتراب، والهروب من شر المجتمع

٦. اللجوء إلى الطبيعة

www.SID.ir

Archive of SID

أصول الرومانسية في شعر الرضي

الاهتمام بالعاطفة:

اعتمد المذهب الرومانسي في أدبه على التعبير عن العواطف وخوالج نفس الأديب واعتبر القلب منبع الإلهام وموطن الشعور ومكان الضمير والهادئ الذي لا يخطئ (قصّاب، ٢٠٠٥: ٤٢). على عكس الكلاسيكية التي كانت تعتبر العقل أساس الشعر وكانت غايتها طلب الحقيقة في الأدب عندما كانت غاية الرومانسيين التعبير عن الجمال لا طلب الحقيقة. ولو درسنا شعر الشريف الرضي على ضوء هذا المبدأ لوجدنا أنّه قد أخلص له كلّ الأخلاص فشعره تعبيرٌ عن خوالج النفس حيث نراه في معظم أشعاره وخاصّةً في شعره الغزلي يعبر عن ذاته (عمران، ٢٠٠٠: ٢٣٢). وحجازياته هي في ذروة الرومانسية من حيث رقّتها وسموّ عواطفها.

عواطفه الشعرية والغرلية عواطف سامية وعفيفة فكان يرتفع في نسيبه من التبذّل والإسفاف وكانت تعابيره العاطفية نابعة عن روحٍ صافية تعي ما هو الحبّ ولا تخلط بينه وبين الانهماك بالشهوات زعماً منها بأنها هي الحبّ كما كان يزعم الشعراء الإباحيون ويروّجون لذلك بشعرهم، فليس في شعره تشبيب بالنساء، او تغزل صريح مباشر، بل هو نسيب رقيق يركز فيه على تصوير حالاته النفسية ويرمز من عفته إلى محبوبته بمشابهاتها مثل ظبية البان والغزال والسرحة وغير ذلك من المدلولات (ابوعليوي، ١٩٨٦: ٥١١). وهذا ما يميز غزل الرضي عن الكثير من شعراء الغزل إذ اكثر من التكلّم عن الصفات الروحية والقيم الأخلاقية. وجمال المحبوب عنده لا ينفك عن جمال الكون وهذه ربّما تنشأ عن نظرته الحكمية والدينية إلى الحياة والحب والكرامة الإنسانية والقيم المعنوية. فغزل الرضي ليس غزلاً يصف الجسم وجماله وانّه ليس غزلاً ماديا بل انّه غزل الروح والمعنوية. فالقارئ والسامع لشعره يريان هذه الميزات بوضوح ودون أي عناء فهو إن تكلّم عن لقاء محبوبته سرعان ما يلجأ إلى حصن العفّة ويتكلّم عنها ويصرُّ على تأكيدها (عابدين، ١٩٩٩: ٢٦٠). كأنها يريدُ أن يتفرق من تهمة أُلصقت به او فكرٍ قاصرٍ لا يرى في الحبّ إلّا ما يريه هو، فمثلاً نرى الإصرار بوضوح في قوله:

قـدرتُ منـها بـلا رقبـى ولا حـذرِ ... علـى الـذي نـام عـن ليلـى ولـم أنمِ
بتنـا ضـجيعينِ في ثـوبي هـوى وتقـى ... يلفّنـا الشـوقُ مـن فـرعٍ إلى قـدمِ
وأمسـت الـريحُ كالغيـري تُجاذبنـا ... علـى الكثيـب فضـول الـريب واللّمـمِ
يشـي بنـا الطـي احيانـاً وآونـةً ... يضـيئنا البـرقُ مجتـازاً علـى اضـمِ

www.SID.ir

Archive of SID

وبيننـــا عفّـــةٌ بايعتُهـــا بيـــدي علـــى الـــوفاء بهـــا والـــرعى للـــذممِ

(الرضي، ١٩٩٩: ٢/٢٣١-٢٣٢)

فالشاعرُ كلُّهُ شوقٌ من رأسه ال قدمه، ورغم أنّه يقدر منها بلا رقبى ولا حذرٍ لكنّة يعف في ثوب يجمع بين الهوى والتقى. والشاعرُ عاشقٌ يخافُ من كلّ شيء أن يشي بحبّه فيرى على الكثيب فضول الريب ويرى الريح غيري تجاذبهما وغير ذلك من الأمور والأحداث ألا أنّ الشاعر ثابتٌ في حبّه العفيف.

وقد بلغ شعره من حيث التعبير العاطفي والفني الجميل الذروة فجاء شعرُهُ عاطفةً في عاطفة ورقّة في رقّة، يكشف لنا عن ذاتٍ تذوبُ شعراً وحناناً فهي عاشقة طيلة عمرها.

وكنـــتُ أظـــنُّ الشـــوقَ للبعـــدِ وحـــدَهُ ولم أدرِ انّ الشـــوقَ للبعـــدِ والقُـــربِ

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٣٢٩)

ويرى أن الشوق دائمي لا ينفك عن العاشق لا في حالة الوصل ولا في حالة البعد. وهي نفسٌ توغلُ في الحبِّ فيصلُ بها الأمر إلى الوله وعدم السلوان وعدم التعلّل بشيءٍ.

ولله قلـــــبٌ لا يبـــــلُّ غليلَـــــهُ وصـــالٌ، ولا يلهيـــهِ عـــن خِلّـــه وعـــدُ

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٣٨٥)

ويقول أيضاً لمحبوبته:

يـــا ريـــمَ ذا الأجـــرع يرعـــى بـــه ثمـــارَ قلبـــي بـــدل الرطـــبِ
هنـــاك شـــرب الـــدمع مـــن ناظـــري يـــا مشرقـــي بالبـــارد العـــذبِ
أنـــت علـــى البُعـــدِ همـــومي إذا غبـــتَ وأشجـــاني علـــى القـــرب
لا أتبـــعُ القـــلبَ إلى غيـــركم عينـــي لكـــم عيـــنٌ علـــى قلبـــي

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٢٤٨)

فالشاعر لا يفترُ ولهُهُ إذ المحبوب يرى ثمار قلبه لأنّه دائماً لا يبارح حلم الحبيب على القرب والبعد فهو أشجان الشاعر الدائمة وهو الذي يشرب دموعه ويشرقه بالماء البارد العذب لكن الشاعر رغم كلّ هذا وفي لا يتبع القلبَ إلى غير حبيبه وأن فضحته عيناه بالدموع وكانت عيناً على قلبه.

وللشاعر الكثير من المقطوعات والقصائد الرومانسية الجميلة فهي غزلٌ بحت وعواطفُ صادقة لمحبٍّ حقيقي لا يعيشُ إلّا بالحبّ. ولا نريدُ أن نطيلَ الكلام عن الجانب العاطفي والغزلي الجميل في شعر الشريف الرضي إذ هو واضحٌ لكلِّ من قرأ شعرَهُ.

www.SID.ir

Archive of SID

الخيال في شعر الشريف الرضي

الخيال من أهم العناصر الأدبية في النصّ الأدبي إذ به يحاولُ الأديب أن ينتصر لأدبه ويحقّق الغاية من شعره وادبه وهي إثارة العاطفة في القارئ أو المستمع حتّى ينفعلا ويتأثّرا بالموقف كما انفعل وتأثّر به هو. فالخيال هو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة (الخفاجي، ١٩٩٥: ٥٣). ولابدّ لكلّ أدبٍ أن يتّسمَ به وهو قديمٌ بقدم الأدب لكنّ الإقبال عليه والإكثار منه في الأدب والشعر مختلف جدّاً بين الأدباء حسب اتّجاهاتهم الأدبية واختلافهم في العواطف والأحاسيس الأدبية. فمنهم من رقّت عواطفه وكثرت وظَرُفَت أخيلتُهُ ومنهم من انهمك في الحكمة او في الملاحم او في الوصف وغير ذلك، فاختلف عنصر الخيال في ادبهم حسب اختلاف اتّجاهاتهم الأدبية.

ازداد التأكيد على دور الخيال في الأدب في المذهب الرومانسي وأدب الرومانسيين حيث كان أدبهم أدباً عاطفياً يعتمدُ إلى حدٍ كبير على الخيال. وهذا الإهتمام قد ظهر ايضاً في الأدب العربي القديم حيث شغلت قيمة الخيال في نظم الشعر فكر نقّاد العرب. فالنقد الأدبي في عصر الشريف الرضي كان مهتمّاً اي ما اهتمام بأثر الخيال في العملية الشعرية حتّى قيل أنّ النقد الشعري عند أغلب نقّاد القرن الرابع يرجعُ إلى الخيال (عمران، ٢٠٠٠: ٣٢٥).

إن البيئة الأدبية والنقد الأدبي في عهد الرضي بالأضافة إلى شاعريته الفياضة، قد هيئت لخياله الخصب أن ينمو. فالنقد الأدبي خير موجّهٍ ومرشدٍ للأديب، فكانت الظروف مؤاتية لأن يحلّ الخيال محلّاً رومانسياً في أدبه.

لقد تميز شعر الشريف الرضي بالخيال الخصب وقد كان من اهم شعراء الطبع والبديهة الذين ظهر أثر الخيال في شعرهم ويمكننا أن نعدّ هذا الخيال من نتائج طبيعته الشاعرة وكثرة مشاغله في الحياة من مظالم، ونقابة وإمارة الحجّ (عمران، ٢٠٠٠: ٣٢١). كما لكثرة مطالعاته الأدبية والعلمية اثرواضح في هذا الأمر، كتأليفه نهج البلاغة وحسن اختياره من كلام الإمام علي عليه السلام وما في هذا الكتاب من خيال نابضٍ ووثّاب. الخيال في شعر الشريف الرضي يظهر في كلّ اشعاره، في مدحه ورثائه وغزله ووصفه. هذا نموذج من شعره في رثاء أمّه:

ابكيك لو نقع الغليلَ بكائي ... واقولُ لو ذهب المقالُ بدائي
واعوذُ بالصبر الجميل تعزّياً ... لو كان بالصبر الجميلِ عزائي
طوراً تكاثرُني الدموعُ وتارةً ... آوي إلى أكرومتي وحيائي
كم عبرة موّهتُها بأنامليِ ... وسترتُها متجمّلاً بردائي

www.SID.ir

Archive of SID

أُبــدي التجلّــدَ للعــدوّ ولــو دري ... بتململــي لقــد اشــتفى أعــدائي
ماكنــتُ أذخــرُ في فــداك رغيبــةً ... لــو كــان يرجــعُ ميــتٌ بفــداءِ
لــو كــان يــدفَعُ ذا الحمــامُ بقــوّةٍ ... لتكــدّست عصــبٌ وراءَ لــوائي

(الرضي، ١٩٩٩: ٧٣/١)

فالصور جميلة إذ يعوذ الشاعرُ بالصور فلا يجدُ عزائه به، فيعود إلى حيائه وأكرومته لكنّه لا يستطيع أن يغلب دموعه فتيار الحزن في داخله أقوى من كلّ شعور آخر فيحاول أن يموّه عبراته ويسترها بالتجمّل بردائه ثمّ يقول لو كانت الفديةُ تنفعُ الميت لفداها بما أغلى ما عنده ولو كانت القوّةُ تدفعُ الموت لتكدّست عصب وراء لواء عزيمته في دفع الموت.

إنّ انصباب دموع الشاعر بغزارة وانقطاعها لفترة وجيزة ثم العودة إلى البكاء، وتمويه الدموع بالأنامل وسترها بالرداء وغيرها من الصور كلها صور حركيةٌ تسعى من أجل تصوير ابن بارّ يفقد والدته العزيزة ولا طاقة له بالصبر الذي لا سبيل له غيره. وقد وُفِّق الشاعر في تصوير نفسه يوم فقد امّه بافضل طريقة.

لكن الخيال الشعري عند الشريف الرضي كما نري في هذه الابيات قد لا يمتدّ ليشكل صورة فنية واحدة. فهو إن صحّ القول يصنع عدّة صور شعرية تصنع في نهاية المطاف مجموعة من الصور الفنية الجميلة المترابطة شعوريا ترابطاً قوياً والتي تعكس ذاته، كذلك الامر في قصائده الاخري، وهي ظاهرة نستطيع آن نسمّيها بالتفجرات الخيالية مثل قصيدته في رثاء أبي إسحاق الصابي اذ مزجها بمشاعر الحزن وصور خيالية تعبر عن خوالج نفسه وحزنه على موت الصابي:

أرأيــت مــن حملــوا علــى الأعــوادِ ... أرأيــت كيــف خبــا ضيــاء النــادي
جبلٌ هـوى لـو خرّ في البحـر اغتـدى ... مــن وقعــه متتابــع الأزبــادِ
مـا كنـتُ اعلـمُ قبـل حطّك في الثـرى ... أن الثــرى يعلــو علــى الأطــوادِ

(الرضي، ١٩٩٩: ٢٥٦/٢)

في الحقيقة أنّ تخيل صورة جبلٍ يخرُّ في البحر ويجعله متتابع الأزباد صورة رائعة اذا صورناها بمخيلتنا كأننا نراها أمام أعيننا، وكذلك ان تتصور ان يدفَنَ جبل في الثرى ويجعَل في القبر لكن هاتين الصورتين بالتالي تظل طغيانا خياليا رائعا لما في البيت الاول من السكون والوجوم ازاء حمل جثمان الصابي على ايدي المشيعين وانطفاء ضيائه الذي كان

www.SID.ir

Archive of SID

يشع علما وادبا. وهذا ما نقصده بالتفجّرات الخيالية في شعر الشريف الرضي إذ يفاجئنا بصورةٍ جميلة بعد هدوء عاطفي حزين يسيطرُ على القصيدة.

كذلك في غزل الشريف الرضي نرى صورا فنية تعبّر عن الحب الطاهر والصادق وعن مشاعر بلغت مستوى فني ناضج ورائع تمزج الحب بالطهارة، وتصنع لوحات فنية جميلة تدلُّ على ذات فنية صافية.

الوحدة العضوية في قصائد الشريف الرضي

اتّسم أدب الرومانسيين بظاهرةٍ أخرى تسمّى الوحدة العضوية في القصيدة إذ كان قبل المذهب الرومانسي يعَدُّ كلّ بيتٍ في القصيدة أو كلُّ جزء منها مستقلّاً على حده، لكن اختلف الوضعُ بعد ظهور الرومانسية وطالب الرومانسيون بأن تكونَ القصيدة كالجسد الواحد متناسقة ومرتبطة ببعضها البعض (غنيمي هلال، الأدب المقارن: ٣٨٣).

الشريف الرضي قد سبق كلّ الرومانسيين العرب في هذا المجال فكان جزءٌ كبيرٌ من قصائدُهُ الغزلية منسجمة ذات وحدة عضوية إذ نرى فيها نموّاً ناشئاً عن تأثير قوّة داخلية مركزية تعملُ لغايةٍ معيّنة هي غرض القصيدة وموضوعها او غرضُ شعره عامّةً وكانت لتلك دلائل هامّة مثل الايقاع والصورة والخيال في تحقيق وحدة القصيدة التي هي المثل الأعلى لنشاط الخيال الفنّيّ (عمران، ٢٠٠٠: ٣٣٣). تتصل الوحدة العضوية في شعره بالوحدة الموضوعية اتّصالاً مباشراً فإن كان موضوع القصيدة غزلاً نرى الوحدة العضوية بوضوح وبدرجة عالية من الانسجام وعندما يكونموضوع القصيدة مدحاً او فخراً او غيرهما قد نشعر بانسجامٍ اقلّ في الوحدة العضوية وقد نستطيع أن نبرّر هذا الأمر بقولنا أن الأصل في المذهب الرومانسي هي نبذ شعر المناسبات والتوجه إلى شعر الذات، والمدح والفخر والرثاء كلّها من شعر المناسبات وطبيعة الشريف الرضي لا تتناسب مع هذه الأشعار كثيراً وإن أجاد هو فيها بمعانٍ جميلة وصاغ قصائد محبوكة. وهذا الأمر يدلُّ على جانب من جوانب شعره الرومانسي. نستطيع أن نشاهد من خلال ما جئنا به من النماذج في هذا المقال أن نرى التماسك والوحدة العضوية في شعره.

الهجرة والاغتراب:

مجّد الرومانسيون الألم والحزن وتغنّوا بمشاعر اليأس والخيبة وأسرفوا في التشاؤم والإحساس بالغربة وتميزت اعمالهم الفنية بالسوداوية والحزن والكآبة (قصاب، ٢٠٠٥: ٤٣؛

www.SID.ir

Archive of SID

الاصفر، ١٩٩٩: ٥٦-٥٧). وقد تكلّمنا عن الغزل الحزين عند الشريف الرضي مسبقاً ولكن لا ينتهي الأمر إلى هنا فكما قلنا انّ الرومانسيين أسرفوا في هذا الحزن وقد تبدّل فيهم إلى يأسٍ وتشاؤم ومن ثمَّ احسّوا بالغربة ورأوا انّ عليهم أن يهاجروا من مجتمعهم لما فيه من الشرورُ وصل بهم الأمرُ في بعض الأحيان إلى أن هربوا من انفسهم.

أدّت هذه الأحاسيسُ إلى أن يشكوا الدهرَ والزمان وينظروا اليهما بعين العدوّ المُجاهر بعدائه ونلاحظ هذا الجانب ايضاً في شعر الشريف الرضي كقوله:

زماني كالعدوّ يريدُ قتلي ... فغالطني وقال أنا الحبيبُ
وأنكرني فعرّفني اليه ... لظى الأنفاس والنظرُ المريبُ

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٢٥٤)

فهو يرى أن الدهر عدوّ يظهر بهيئة الحبيب، فيمثّله بشخصٍ لم يعرّفه اليه سوى لظى أنفاسه ونظره المريب. فالشاعر مغترب لا يرى في الزمن دو يرما يدلّ إلى الثقة. ويرى أن الدهر لا يرأفُ به ويداه كالعدوّ الذي يريدُ قتله ويمرّ عليه الخطوب متعمّداً. ومحاولاته في هذا السبيل مستمرّة لا تتوقف لإلحاق الأضرار به.

تُجاذبني يدُ الأيام نفسي ... ويوشك أن يكون لها الغلابُ
وتغدرُ بي الأقاربُ والأداني ... فلا عجبٌ إذا غدر الصّحابُ
نهضتُ وقد قعدنَ الليالي ... فلا خيلٌ اعنّ ولا ركابُ
وما ذنبي اذا اتّفَقَت خطوبٌ ... مغالبةٌ وأيام غضابُ

(الرضي، ١٩٩٩: ١/١٨٦)

هذه هي السوداوية وهذا هو الاغتراب. سوداويةٌ وإغترابٌ في سبيلهما إلى الإزدياد لكثرة ما يلاقي الشاعر من مصائب وكذلك لقلّة حظّه.

شرق من الحدثان لو يرمي به ... ذا الماءُ من الم اغصّ الماءَ
أحبابي الأدنينَ كم ألقي بكم ... داءً يمضُّ فلا أداوي الداءَ
احيا إخاءَكمُ الماتُ وغيركم ... جرّبتهم فثكلتهم احياءَ

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٨٢)

فيغصّ الشاعرُ بحدثان الدهر الذي يغصّ الماء العذب بها لما فيها من الكدر. ولا يلقي الشاعر من احبابه الّا الدّاء فلا يرى فرقاً بين الحي والميت بين ذلك فهو غريب لا يشعر تجاه كلّ الّا بالغربة التي تحيط به في كلّ جوانب حياته.

www.SID.ir

Archive of SID

انّه مغتربٌ لا يرى من يستحقُّ أن يحبَهُ في الكون فلا احد يحبَّهُ ولا صديقَ لم يحمل الحقدَ، وهي قمّة التشاؤم، والإغتراب.

لأي حبيبٍ يحسن الرأي والودُّ وأكثر هذا الناسِ ليس لهُ عهدُ
أكلُّ قريبٍ لي بعيدٌ بودّه وكل صديقٍ بين أضلعه حقدُ

(السيد جاسم، د.ت: ٩٧)

وهذا حاله مع أصدقائه وحاله مع الأيام صحابٌ يكونون معه في الطمع ويغدرونَ به عند الشدّة.

قلّ الصحابُ فإن ظفر تُ بنعمةٍ كثُرَ الصّحابُ
من لي به سمحاً إذا صفرت من القوم الوطابُ
من لي به يا دهرُ والأيام كالحة غضابُ

(مبارك، د.ت: ٢/٤-٥)

ولا يكون حالك أسوء من كلّ هذا إلّا عندما تظنُّ الأيام والليالي هما يبديان لك العداوة ويكيدانِ لك فلا يبقي لك شيءٌ إلّا وهما يصارعانك عليه فلا غنى ولا شباب ولا صديق.

قعدتُ بمدرجة الندابات يمرُّ الزمانُ على الخطوبا
على الهمّ أنفق شرخَ الشباب وأعطي المنايا حبيباً حبيبا

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٢٣٢)

ومثل هذه النماذج كثيرة في ديوانه هي لا تُعدُّ بكثرتها بل تُعدُّ بأن الشاعر قد جعلها فلسفةً ونظر من خلالها إلى العالم فكأنّهُ تشاءمَ وان كانت روح المثابرة والجدّ حية كلّ الحياة في قصائده.

اللجوء إلى الطبيعة:

اندمج الرومانسيون بالطبيعة وشخصّوها ورأوا فيها الصدر الرؤوم الذي ينبغي أن يرتمي الانسان فيه ليستعيد صفاءهُ وكانوا ينزعون إلى خوارق الطبيعة وأعاجيبها (عتيق، د.ت: ٢٤٨؛ الاصفر، ١٩٩٩: ٥٦). أكثر الرومانسيونَ من ذكر الطبيعة وقد جعلوها ذات روح وكأنّها حية تفهم آلام البشر وتستطيع أن تسليهُ كما انّها رمزٌ للهروب من المجتمع الذي فروا منه وقد ثاروا على اوضاعه لما فيها من الظلم والانشغال بالحياة اليومية وعدم الإكتراث بالروح الإنسانية.

والقارئ بل وحتّى المتصفّح لديوان الشريف الرضي سينتبه إلى هذا الامر في شعره انّه كذلك لم يذكر الطبيعة لانّها تقع حوله «طبقاً للنظرية التي ترى الاديب وأدبهُ في بيئته» بل هو يعشقها ويهيم بها ويصفها بوصفٍ جميلٍ يفوق وصف الرومانسيين المعاصرين لها. إنّه

www.SID.ir

Archive of SID

يحلُّ بها ومن ثمّ هي تحلّ بشعره لتكسبهُ رونق الحياة ونشاطها. اسمعهُ وهو يهنئ صديقاً له بقدومه من سفر، واسمع وقع أقدام الطبيعة في شعره وجرى انفاسها وسكونها في ابياته.

رأينـــا بوجـــهك نـــور اليقيـــ ... نِ، حتّـــى خلعنـــا ظـــلام الـــريبِ
ومـــا زلـــتَ تمســـحُ خـــدَّ الصـــباح ... وترحـــم قلـــب الظـــلام الأشِـــبِ
بمطـــرورة الـــصدرِ خـــفّاقةٍ ... تطيـــر مجاذيفُـــها كالعَـــذَبِ
تعانقـــك الـــريحُ في صدرهـــا ... ويشـــتاقك المـــاءُ حـــتّى يثـــبِ
تـــمرُّ بشخصـــك مـــرَّ الجيـــادِ ... وتســـري برحلـــك ســـير النّجُـــبِ

(الرضي، ١٩٩٩: ١/١٦٥)

فنرى تهلّل وجه الزمان ومسح خدّ الصباح وترحم قلب الظلام وتعانق الريح وحنان الماء ووثبته، كلّها تتفق مع احساس الشاعر الأمر الذي يجعلها وثّابةً فيخفق قلب القارئ والسامع لها. ويقول في قصيدة أخرى:

سمـــائي مذهّبـــة بـــالبروقِ ... وأرضـــي مفضّضـــةٌ بالحُبـــابِ
وروضـــي مطارفُـــهُ غضّـــةٌ ... تـــطرّزُ اطـــرافها بالـــذّهاب
وليـــلٌ تـــرى الفجـــر في عطفـــه ... كمـــا شـــاب بعـــضُ جنـــاح الغـــرابِ
يغـــارُ الظـــلامُ علـــى شـــمسه ... إلى أن يواريهـــا بالحـــجابِ
وتصـــقلُ انجمَـــهُ العاصِفـــاتُ ... إذا صَـــدِيت مـــن غمـــود السحـــابِ
وبـــرقٌ ينفّـــضُ أطرافـــهُ ... كمـــا رَمَـــحَت بلـــق خـــيلٍ عـــرابِ
ومـــاءٌ يضـــارعُ خـــيط السقـــاء ... ويرمـــي بـــه فـــي وجـــوه الشـــعابِ
تزعـــزعُ ريـــحُ الصّـــبا متنَـــهُ ... كمـــا لطـــم المـــزجُ خـــدّ الشـــرابِ

(الرضي، ١٩٩٩: ١/١٠٣-١٠٤)

فالسماء مذهّبةٌ بالبروق والروضُ مطارفه غضّة والظلام يغار على الشمس، والعاصفت تصقل الأنجم، والماء يضارع خيط السقاء ويرمي في وجه الشعاب، والريح تزعزع متن الماء، وهذه هي انعكاس الطبيعة بحيويتها في شعره.

هذه المقطوعات تشبه إلى حد كبير مقطوعات الرومانسيين المعاصرين بل تفوقها أحياناً بصفاء لغتها وخلوها من التكلف والتصنع في الأحاسيس. وقد أشار الدكتور زكي مبارك في كتابه «عبقرية الشريف الرضي» إلى هذه الظاهرة في شعر الشريف الرضي بعدما نقل الأبيات التالية:

www.SID.ir

Archive of SID

كلـــيني إلى ليـــلٍ كـــأنّ نجومـــَهُ تغـــازلُ طـــرفي عـــن عيـــون الجـــآذرِ
امـــرٌ بـــدارٍ منـــك مشـــجوجة الثـــرى بمجـــرى نسيـــم الآنســـات الغرائـــرِ
تمـــرٌ عليهـــا الريـــحُ وهـــي كـــأنّها تلفّـــفُ في اعطافـــه تلـــك المقاصـــرِ

ثم يعلّق عليها «ألا ترون يا إدباء بغداد كيف يزعم شاعركم انّ للطبيعة أحاسيس؟ ألا ترون كيف يدّعي أنّ الرياح تمرّ بتلك الدار فتتلفّت إلى ما فيها من مقاصير؟ ليتَ الوقت يسمح بإسماعكم فقرات من كتاب «التصوّف الاسلامي» لتروا بقوّة المنطق أنّ الشريف لم يكن عابثاً، وانما كان يحس ما سيقوله انصار القول بوحدة الوجود بمئات السنين. وهل يعقَلُ أن تمرّ الريح بالوادي الجديب، كما تمرّ بالوادي الخصيب؟ هل يعقلُ أن تمرّ النسمات بوجوه اهل البلادة كما تمرّ بوجوه اهل القلوب؟ وهل اختلّت الموازين في الدنيا حتّى نصدّق أنّ الأرض التي تدوسها البهائم كالأرض التي تمشي عليها أقدام الدنيا» (مبارك، د.ت: ١٠٣/٢-١٠٤).

الاهتمام بشعر الحبّ والإخلاص للمحبوب

من يقرأ شعر الشريف الرضي يجد روحه الشاعرة تسيل في وجدانية منقطعة النظير في طيات ديوانه ويجد شاعراً تغذّى بالوجدانية والرقة، شاعر يبحث عن الحبّ بعفّةٍ وطهارة ويبُثّ ما في قلبه من الأحاسيس حتّى كأنه يطارحنا قضاياه فيجعلنا نتّبع خطاه وكأنّا نتّبعُ ساحراً جبّاراً. أخلص الشريف الرضي للحب في شعره كلّ الاخلاص وهو في حديثه عن حبّه لا يبدو لنا إلّا رجلاً من جنس الهوى وعواطف الحبّ إذ لا يمكننا أن نعبّر عمّا يقول عن نفسه في الحبّ بقول غير هذا لما في شعره من خلوص واخلاص، خلوصٌ من كلّ شيءٍ سوى الحبّ واخلاص غير موصوف له وهذا ما دعت اليه الرمانسية ايضا فصار الحب عند الرومانسيين فضيلة بعد ما كان يعدّه الكلاسيكيون هوى من الأهواء (غنيمي هلال، الرومانتيكية: ١٤١). هذا الحب نفسه عند الرضي العالم في الدين والمعروف بحسن التدين، والايمان فلنستمع له قليلاً عندما يتكلّم عن شوقه:

لـــو كـــان حـــرُّ الوجـــدِ يعقـــبُ بـــعدهُ بـــرد الوصـــال غفـــرتَ ذاك لذاكـــا
لا بـــل شـــجيتَ بمـــن يبِيـــتُ مسلّمـــاً خـــالي الضـــلوع، ولا يحـــسّ شـــجاكا
إن يصبحوا صاحين من خمر الهوى فلقـــد سقـــوك مـــن الـــغرام دراكـــا
يـــا ليـــتَ شغلـــك بـــالأسى أعـــداهمُ اولا، فليـــتَ فراغهـــم أعداكـــا
أهـــوى وذلّـــاً فـــي الهـــوى وطماعـــةً ابـــداً، تعالـــى اللهُ مـــا اشقاكـــا

(الرضي، ١٩٩٩: ٩٢/٢)

www.SID.ir

Archive of SID

فالشاعرُ هنا يحرقُهُ حرُّ الوجدِ ولا يرى لبرد الوصالِ من خبرٍ فهو يشجي بمن لا يحسُّ شجاهُ، فهو يحبُّ حتّى الموت من لا ينشغلون بحبّه كما انشغل هو بحبّهم لكن لا مفرّ للشاعر من الحُبّ فهو خُلّق لما في هذا الحُبّ من الشقاء والذّلّ.

إنّ في شعر الشريف الرضي إلى جانب المعاني الرفيعة والالفاظ الأنيقة، انسياباً يجري ويستمرُّ في كلّ ابيات القصيدة فتأتي الموسيقى ملائمة مع الأحاسيس الملقاة فتزيد القصيدة روعةً وجمالاً وتجعلها أكثر غنائية وهذا ما يميز الشعر الحُبّ عند الرضي حتّى كاد أن يكون فريداً من نوعه.

ما اكثر قصائده الرومانسية الجميلة التي تعبّر عن ذاته ووجدانه وتبثُّ ما فيها من الأشجان والأحزان وتبلغ مدى عالياً في الكمال والإتساق فكانّها نُسجت على يد فنانٍ بارعٍ.

إن لم تكن كبدي غداة وداعكم ... ذابت فاعلمُ انّها ستذوبُ
داءٌ طلبتُ له الأساةَ فلم يكن ... الّا التعلّلَ بالدموع طبيبُ

(الرضي، ١٩٩٩: ٢٥٢/١)

وهو شاعر يذوب من الفراق ولا يتعلّل الّا بالدموع التي قد تخفّف عنه فهي طبيبتُهُ. وذلك لفرط ما يلقاه جرّاء عواطفه الصادقة فإنّ قصائده في اغلبها تعبّر عن حبّ صادق وعاشق قد بلغ في العشق اعلى الرتب.

عشقتُ ومالي يعلم اللّهُ حاجةٌ ... سِوى نظري والعاشقون ضروبُ
ومالي يا لمياءُ بالشعر طائلٌ ... سوى أنَّ أشعاري عليك نسيبُ
أحبّك حبّاً لو جزيتِ ببعضه ... أطاعك منّي قائدٌ وجنيبُ
وفي القلب داءٌ في يديك دواؤُهُ ... ألا ربّ داءٍ لا يراهُ طبيبُ
سرى لك من اوطانه كلّ عارضٍ ... تضاحك فيه البرقُ وهو قطوبُ
ولا زال خفّاق النسيم مرقرِقاً ... عليك، وأنواءُ الغمام تصوبُ

(الرضي، ١٩٩٩: ٢٤٣/١-٢٤٤)

وهذه القصيدة وغيرها من القصائد تمثّلُ ما لديه من براعة في بيان احاسيسه كما تدلُّ على صدق العاطفة وقوتها عنده إذ لا يستطيع ان يصوغ الشاعر بعواطف غير صادقة ومزيفّة قصائد تبلغ هذا المدى في الروعة والجمال والقوّة والكمال. كذلك عندما يتعلّقُ الأمر بمعانيه فهي معانٍ تبعث السامع والقارئ على الانفعال الشديد بها فهو مثلاً ليس له من حبّه

www.SID.ir

Archive of SID

سوى النظر كما يقول في البيت الأول ثم يدعي في البيت الذي يليه انّه ليس له طائل بالشعر سوى أن تكون أشعاره نسيباً على من يهوي وهذه هي بدورها معانٍ مبتكرة وغاية في الرومانسية والرقّة وقد شاهدنا هذا الأمر بوضوح في سائر النماذج التي اتينا بها.

الغزل العاطفي الحزين

اتّسم ادب الرومانسيين وخاصّةً غزلهم بالحزن والسوداوية فهم يجترون الآهات ويشكون مرارةَ فراق المحبوب في البعد والقرب ولا يشفي غليلَهُم وصالٌ وإن تمنَّوه وأطنبوا في الحديث عنه، فهو لا يلذّ لهم نتيجةً اللحزن والمزاج السوداوي المسيطرين على كيانهم. أدب الرومانسيين أدب تفجّع ونواح وأعمالهم مفعمة بالأسى والحزن (ابوالشباب، ١٩٨٨: ٢٠١). اتسم أدب وغزل الشريف الرضي بهذه الميزات وقدّم غزلاً مليئاً بالحزن في فراق الحبيب او في لقائه مع من يهوى. لقاء كلّهُ حبّ واشتياق وخالٍ من العبث والشهوات. انّ غزل الشريف الرضي تميز عن غيره من الغزل العربي بغرائب من الأحاسيس والمشاعر وبمعان طريفة تشوق العقول والاذواق (نورالدين، ١٩٩٠: ٨٦). وهذا ما يجعله رومانسيا مميزا في الأحاسيس والمعاني وحتى في اللغة والموسيقى؛ إذ نراه دائماً يلائم في غزله بين هذه العناصر بأحسن ما يكون. فهو غزلٌ يستهوي القارئ والسامع رغم حزنه لأنّه ينبعُ عن ضميرٍ صادق وصاف. كيف يكون حاله في غياب الحبيب وهو يقول في الوصال:

إن نـال منكـم وصـالاً زاده سقمـاً كـأنّ كـلّ دواءٍ عنـده داءُ

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٩٨)

فهو لا يزيدها الوصالُ إلّا سقماً حتّى كأنّ كلّ دواءٍ هو داءٌ، غير انّه أيضاً لا يجدُ السلوى في فراق احبّته ولا يستطيع ان يمنع دمعَهُ من الصبِّ فكأنّما الحزن عنده يأتي من أعماقٍ مجهولة:

هـم خلّفـوا دمعـي طليقـاً وغـادروا فـؤادي علـى داء الغـرام حبيسـا

طـلاع الحشـى لم يتركـوا فيـه فضـلةً تضـمّ جـوى مـن بعـدهم ورسيسـا

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٥٧٩)

وهو يحنّ إلى لقاء الحبيب كلّ يوم، وكلّ وقتٍ هو في البحث عنه، ولا يجدُ صبراً عندما يذكر الماضي وينفجر بكاءً ويبوح صمته ويتظلّم قلبُهُ.

احـنُّ إلى لقائـك كـلّ يـومٍ وأسـال عـن إيابـك كـلّ وقـتٍ

www.SID.ir

Archive of SID

واذكـر مـا مضـى فيغيـضُ صبـري وتنفـــر عبـــرتي ويبـــوح صمتـــي
ولـــي قلـــبٌ إذا ذكـــر التلاقـــي تظلّـــم مـــن يـــد البيـــن المشتّـــت

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٢٨٧)

وهذا الحنين لا ينفك عنه ويدوم معه مادام.

وإنّـــي لمجلـــوبٌ لـــي الشـــوقُ كلّمـــا تـــنفّس شـــاك أو تألّـــمَ ذو وجـــدِ
تعـرّض رسـلُ الشـوقِ والركـبُ جاهـدٌ فتـــوقظني مـــن بـــين نـــوّامهم وحـــدي

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٤٣١)

وهذا حاله في بعد الاحباب حال من يجد بدّاً من الحب ولا سلواناً عنه. وهو كلّه حبّ ومرارة في هذه الأبيات إذ يقول:

سأصبـــرُ إنّ الصبـــرَ مُـــرٌّ عواقبُـــهُ الا ربّمـــا لـــذّت لقلبـــي عواقبُـــه
ولا بـدّ أن نعطـي علـى البعـد دولـةً فنـأمـــنَ بينـــاً او رقيبـــاً نـراقبُـــه
فـــلا قلـــب لي إلّـــا وانـــت حجابُـــهُ ولا ســـرّ لي إلّـــا وذكـــرك حاجبـــه

(الرضي، ١٩٩٩: ١/٢٥٣)

إنّ صبر الشّاعر هنا صبر عاشقٍ ولوع ربّما لم نجد له نظيراً في المرارة عند شعراء العرب قبل الشريف الرضي رغم بكائهم على ديار الحبيب والحنين اليه، لكن الرضي يحبّ حبّاً قد ينحى منحى صوفياً فالحبّ عنده يقترنُ بالصبر والحرقة، ولا فرقَ بين الفراقِ والوصال. وهذا هو اختلاط الحب والحنين وهذا هوالغزل الحزين الذي دعت اليه الرومانسية وبنت معظم أسسها عليه. كأنّ الشريف الرضي يريد أن يلبّي دعوة الرومانسيين إلى ادب هكذا فيسيل ذاتية مرموقة بقصائده حتى تصبح نماذج فريدة من الشعر الوجداني الحزين.

حجازيات الشّريف الرّضي

أشهر ما اشتهر من شعر الشريف الرضي هي حجازياتُهُ التي بلغت الذروةُ في التعبير الصادق عن عواطفه في حبّه. وسُميت غزلياتُهُ بالحجازيات لانّ اكثرها قيل في مواسم الحجّ او في ذكرها عندما كان يتولّى إمارة الحجّ (الفاخوري، ١٣٨٢: ١/٨٣١).

وهي ذات قيمة أدبية وفنية عالية لما فيها من تمثيل لوجدان صاحبها فهي تعبيرٌ عن أمانيه والتياعاته واشواقه وعبراته وخفقات فؤاده وكذلك لما في الفاظها من نعومة ورقّة قد تكون تمثيلاً مباشراً عن صفاء ورقّة وجدانه كما انها تأتي في انسجام باهر قد يكون ايضاً معبّراً

www.SID.ir

Archive of SID

عن صدقه في الحبّ وعن نضج عواطفه وأحاسيسه نضجٌ سبّب بلوغاً فنياً ووحدةً في النسيج في شعره وجعل اسلوبه حافلاً بالسلاسة والعذوبة والموسيقى الملائمة مع تلك الأحاسيس.

ولقد كان القدماء يضربون الأمثال بقصائده الحجازيات ويرون أنه يلزم على المتأدب أن يحفظ حجازياته لتُصقلَ نفسهُ (مبارك، د.ت: ٧٢/٢). وهذه القصائد التي تُعَدُّ من فرائد الشعر العربي تدلُّ على الابتكار والابتداع عنده فهو لا يكرر ما سبق اليه الشعراء وانّما تتفجر عبقريته عن معانٍ طريفة تشوّق الاذواق والعقول (مبارك، د.ت: ١٠٧/٢). وهذا يكشف لنا عن سر روعة تلك القصائد فهي قد نشأت عن احساس صادق وصادر بصورة مباشرة عن نفس الشاعر إذ هو لم يكن ليقلّد سائر الشعراء بل تحرّر من قيود التقليد وكتب عن حبّه ورومانسيته بعبقريته وبنفسه المبتدعة فملأت الروعةُ شعرَهُ. وهل في الشعراء من اكثر وجدانية واعذبُ رومانسيةً من الشريف الرضي.

وعدٌ لعينيك عندي ما وفيت به ... يا قربَ ما كذبت عيني عيناك
حكت لحاظك ما في الريم من ملحٍ ... يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي
كأنّ طرفك يوم الجزع يخبرنا ... بما طوى عنك من أسماءِ قتلاك
انتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ له ... فما أمرك في قلبي وأحلاك
عندي رسائلُ شوقٍ لستُ أذكرها ... لو لا الرقيبُ لقد بلّغتُها فاك

(الرضي، ١٩٩٩: ١٨٦/٢)

خصائص رومانسية الشريف الرضي

اتّخذت رومانسية الشريف الرضي طابعاً ابتداعياً وهو أنّه لم يقلِّد اي رومانسي غربي او عربي في احاسيه الرومانسية بل هي نابغةٌ عن ذاته الشاعرة وروحه الأدبية المبدعة.

اتّسمت كذلك عاطفتُهُ بالعفّة والإخلاص للمحبوب وهي ايضاً من ميزات الرومانسي المعاصر لكنّ الكثير من الرومانسيين المعاصرين لم يتقيدوا بها.

انّ الشريف الرضي كان مزيجاً من احاسيس مختلفة فهو في رومانسيته لم ينس نصيبه من الدنيا ولم يغرق في رومانسيته تماماً ولم ينس مجتمعه وعقيدته والكرم في الخلق وغيرها من الصفات الحميدة. كما فعل الكثير من الشعراء الرومانسيين المعاصرين إذ اسرفوا في التشاؤم والأنانية وطرحوا مسائل مجتمعهم جانباً.

إنّ الشريف الرضي رومانسي بذاته، فهو رومانسي في كل تعابيره، ورومانسيته ذاتية لا يستطيع أن يفارقها فلو فارقتهُ رومانسيتُه لفارَقَهُ شعره ولنضب ماؤه لكن الكثير من الشعراء

www.SID.ir

Archive of SID

الرومانسيين المعاصرين تقلّبوا على غيرها من المذاهب مثل الرمزية والكلاسيكية وغيرهما ولم يكونوا كالرضي من هذا الجانب.

سِبقتُهُ في هذا المجال ولا غرو بذلك فالرومانسية في الأدب الأروبي ايضاً لا تختصّ بالأدب المعاصر فهي قديمة في الأدب الأروبي قدم الأساطير الإفريقية والأوذيسا، بل هي أقدم من ذلك أيضاً (عتيق، د.ت: ٢٤٧). وكما قلنا ان رومانسية الرضي كانت ذاتية.

النتائج

إنّ القارئ والسامع لشعر الشريف الرضي يرى أنّ الشعر الرضي ينطبعُ بمسحةٍ من الرّومانسية تصلُ غايتها في إخلاصه وتغنيه بالمحبوب، فشعره عاطفة وحبّ صادق وهو تمثيل لذاته العاشقة والصافية النبع، كما نرى الخيال الوثّاب والمنسجم، والتطلّع إلى الطبيعة ومظاهر الجمال فيها، والذاتية الحزينة والهجرة والإغتراب بوضوح في شعره خاصّة في حجازياته التي نرى فيها كلّ هذه العناصر والأصول جنباً إلى جنب. ولا نقصد بالطّبع بذلك أنّ كلّ عناصر الشعر الرضي تنطبقُ على نسختها الرومانسية الحديثة فالوحدة العضوية مثلاً أكثر تجلّياً عند الشعراء الرّومانسيين المعاصرين لكن انسجام أحاسيس وصور الرضي الشعرية تجعلُ من انسجام قصائده وحدةً عضوية نسبية في شعره.

إنّ شعر الشريف الرضي يمثّل نوعاً من الشعر الوجداني الخالص في الأدب العربي وهو كذلك ينطبق على كثير من أصول المذهب الرومانسي كما رأينا بالأخص قصائده الحجازيات فهي في قمة الأدب الوجداني والرومانسي وقد يكون الرضي قد جرى في جلّ قصائده على النظام القديم للقصيدة العربية ولكنّ الروح الرومانسية ظلّت تسيطر عليها ما جعلها شبيهةً بنزعات الرومانسيين الروحية وطموحاتهم الوجدانية.

وخلاصة القول انّ الرضي كالرومانسيين في عواطفه واحاسيسه، وخياله، ففي شعره دورٌ بارزٌ للخيال في إثارة العواطف كما في شعرهم. وكذلك تتسم عاطفة الحبّ في شعره بالحزن، كما انّ الغربة والإغتراب بارزة في شعره، والطبيعة ايضاً حية في شعره تتكلم وتشعر كما رأينا. وهذه كلّها من اصول المذهب الرومانسي تجلّت بدرجات مختلفة من النضج او عدمه، ومن الظهور والخفاء، في الشعر الشريف الرضي.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أدونيس (٢٠٠٦). *الثابت والمتحول*. ط٩، بيروت: دار الساقي.

٢. الأصفر، عبد الرزاق (١٩٩٩). *المذاهب الأدبية لدى الغرب*. دمشق: اتحاد كتاب العرب.

٣. أبوالشباب، واصف (١٩٨٨). *القديم والجديد في الشعر العربيّ الحديث*. بيروت: دار النهضة العربيّة.

٤. أبوعليوي، حسن محمود (١٩٨٦). *الشريف الرضي*. بيروت: مؤسسة الوفاء.

٥. حسين، طه (دون تا). *حديث الأربعاء*. ط١٤، القاهرة: دار المعارف.

٦. خفاجي، محمد عبدالمنعم (١٩٩٩). *مدارس النقد الأدبي الحديث*. ط٢، بيروت: الدار المصريّة اللبنانيّة.

٧. السيدجاسم، عزيز (دون تا). *الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضيّ*. بيروت: دار الأندلس.

٨. الرازي، زيدالدين محمد (٢٠٠١). بيروت: مؤسسة الرسالة.

٩. رضوان، محمد (٢٠٠٤). *إبراهيم ناجي شاعر الأطلال*. دمشق؛ القاهرة: دار الكتاب العربي.

١٠. الرضيّ، الشريف (١٩٩٩). *الديوان*. بيروت: دار القلم.

١١. العتيق، عبدالعزيز (دون تا). *في النقد الأدبي*. بيروت: دار النهضة العربيّة.

١٢. الفاخوري، حنا (١٣٨٢ه). *الجامع في تاريخ الأدب العربي*. ط٢، قم: ذوي القربى.

١٣. القصاب، وليد (٢٠٠٥). *مذاهب الفن*. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٤. ضيف، شوقي (دون تا). *الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي*. القاهرة: دار المعارف.

١٥. ـــــــــــ (١٤٢٨ق). *عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية، العراق، إيران)*. قم: ذوي القربى.

١٦. عابدين، نزار (١٩٩٩). *الغزل في الأدب العربي ملاح وشعراء*. دمشق: الأهالي.

١٧. عمران، عبداللطيف (٢٠٠٠). *شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكريّة*. دمشق: دار الينابيع.

١٨. غنيمي هلال، محمد (دون تا). *الأدب المقارن*. القاهرة: دار نهضة مصر.

١٩. غنيمي هلال، محمد (دون تا). *الرومانتيكية*. القاهرة: دار نهضة مصر.

٢٠. مبارك، زكي (دون تا). *عبقريّة الشريف الرضيّ*. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

٢١. نور الدين، حسن جعفر (١٩٩٠). *الشريف الرضي*. بيروت: دار الكتب العلمية.

www.SID.ir